من العصور الوسطى الى الأزمنة الحديثة : (*)

١ ـ الوطنية الجديدة

للأستاذ محمد محمد علي

في عام ١٩٠٩ لفت اثنان من حكام المستعمرات الأوربية أحدهما إنجليزي في الهند البريطانية ، والآخر روسي في التركستان، لفتا النظر إلى التغير الذي بدأ يحدث في اليقظة الاجتماعية والثقافية لسكان المستعمرات . فقال اللورد رونالد شاي :(١)

« هناك مشكلات آخذة في الظهور ، لها أثر بعيد بالنسبة للعالم عامة ، ولبريطانيا خاصة ، تحفز على التفكير والدراسة ، أعضاء جمعيتنا ، وإني أشير إلى تلك المشكلات الممثلة في الرغبة الزائدة لتأكيد الذات ، التي تثير أعصاب الشرقيين . وفي الواقع أن احتكاك الفكر العربي بأفكار الشرقيين ، قد أحدث تأثيراً كبيراً في جميع سكان الشرق .

وفي نفس العام ، كتب الحاكم الروسي العام للتركستان:(٢)

« إن الحروب قد حركت العالم الإسلامي في الفترة الحالية ، فقد ظهرت أولاً فكرة الجامعة الإسلامية ثم المطامع الوطنية المتزايدة والأفكار الثورية ، كل هذا قد حرك الجماهير الإسلامية ، وأيقظ في أوساطهم فكرة الوحدة الوطنية ، والأفكار الاشتراكية »

ومنذ عشرين سنة كافحت الهند من أجل الاستقلال ، الذي لفت أنظار بريطانيا والعالم . وفي التركستان ، حلت الجمهوريات الوطنية الاشتراكية محل الولايات الروسية التي كانت تحت سيطرة الحاكم العام . وقد عُرف تفوق أوربا في ميدان العلوم الهندسية والتنظيم الفني . وبدأ الناس يعرفون بالتدريج أن أوربا يمكن أن تقهر بأسلحتها ، فساروا على نهج حركات التحرير الوطنية التي قامت في أوربا في القرن التاسع عشر . ولما تنبهت في شرق أوربا — أمم لا تاريخ لها — للشعور بذاتها ، في القرن التاسع عشر وحاولت أن تلعب دوراً إيجابياً في التاريخ ؛ استيقظ الشرقيون من ظلمات عهود الإقطاع الوسطى ، وهبوا إلى غرض واحد في شعار الوطنية ورأسمالية الطبقة الوسطى .

إذن ، فالشرق قد وصل إلى عصر فيه الوطنية أعلى وأسمى الأوضاع الاجتماعية ، وتفرض طابعها على العصر .

ومنذ سنوات ، كان الدين هو العامل الفعال في الشرق .

وليست الوطنية ديناً خارجاً oustine ، ولكنها تشق طريقها بجانبه ، وغالباً ما تعدل فيه بالتغيير والإصلاح .

إن الوطنية اليوم في تلاؤم مع النظم الاجتماعية الجديدة . وقد ظهر هذا في أوربا بوضوح ، عندما كانت هناك حاجة إلى القضاء على الإقطاع ، والوطنية المحلية القائمة على أساس الزراعة والأسواق الصغيرة والمدن والوصول إلى الوحدة الكبرى في ظل النظام الرأسمالي .

لقد كانت الوطنية هي الشكل الذي وافق حاجات الرأسمالية الناشئة والطبقة الوسطى الفنية ، ولا تزال الوطنية في الشرق تواجه حاجات اجتماعية واقتصادية ، سواء نظرنا إلى الموقف من وجهة نظر أوربا اليوم ، أو الشرق في الماضي القريب . فنظم الصناعة الرأسمالية تشق طريقها إلى الشرق ، ويسير اقتصاد النقد والتصنيع : imdustivialisatiou إلى جانب الزراعة والمبادلة . وهنالك طبقة وسطى فنية آخذة في الظهور ، والشعور برسالتها ، ومتأهبة للكفاح ضد نبلاء الإقطاع .

وفي الأقطار التي تجري فيها هذه العمليات ، نرى أن الحركات الوطنية قد قضت على الانقسامات الدينية بين السكان ، كما في مصر وسورية . وإن السياسي المتقطع النظير — ابن السعود بعيد عن روح التطور في رسالته السياسية ، ويعتقد الشباب العربي في سوريا وفلسطين — حتى المسيحيون — آمالهم على بدوي الصحراء المسلم ابن السعود . وعندما أعلن الأتراك الرابطة الوطنية

(*) فصل من كتاب : هانز كوهن : الوطنية والاستعمار في الشرق الأدنى : (الطبعة الإنجليزية) لندن ١٩٣٢

(١) في خطابه الذي ألقاه إلى جمعية آسيا الوسطى بلندن في يونية ١٩٠٩

(٢) اقتبست كلماته من : M. Nemchenko Nationalnoye Razmezevaniye Saednei Ozii Moscow 1925.

وهناك تفاصيل عن التغير الاجتماعي والثقافي في الشرق ، في كتاب « تاريخ الحركة الوطنية في الشرق » ، وكذا في : Orient and Okzident .

فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠ — عن الولايات العربية فى الأمبراطورية العثمانية ، ومدن الإسلام المقدسة ، الذى كان امتلاكها فى غاية الأهمية لدولة الخلافة الإسلامية ؛ أرسل وفد الخلافة الهندى برئاسة محمد على . إلى نائب الملك فى الهند فى ١٩ يناير سنة ١٩٢٠ وإلى لويد جورج فى ١٩ مارس ، يقول إن الخليفة يجب أن يمتد نفوذه إلى المدن المقدسة الثلاث : مكة والمدينة والقدس ، وإلا فإن معاهدة السلام لن يقبلها أى مسلم مؤمن .

وقد نقل (خودابكش) كلمات ولسون كاس الأمريكي : « إن شباب الإسلام اليوم مفكر بأسلوب سياسى أكثر منه دينياً ، وهو متحمس جداً لنفع أمته أكثر من تحمسه لانتشار الإسلام . وإن عظمة الإسلام ليست مسألة خلافة أو شريعة ، بل هى مسألة وحدة سياسية تقف في وجه الغرب »(١) .

٢ — الشباب الحديث

بعد الحرب العظمى (الأولى) مباشرة — عند ما سادت بين الشرقيين تجربة الوحدة الوطنية ، ظهر أن الاختلافات الدينية قد اختفت . فالمسلمون والأقباط فى مصر ، والمسلمون والمسيحيون فى فلسطين وسوريا ، والشيعة والسنيون فى العراق ، والمسلمون والهندوس فى الهند ؛ كل أولئك حاربوا جنباً إلى جنب من أجل الثورة على أحوالهم السياسية . ولا تزال اليقظة القومية لها وجود اليوم وإنها لعامل فى تاريخ هذه الأقطار — التى ما كانت توجد بغيرها. وسوف لا تلعب الاختلافات الدينية دوراً فى السياسة فى محيط الحضارة العربية العصرية ؛ وهذا بالرغم من السياسة الاستعمارية الرجعية وتصميمها للنمو السياسى واليقظة القومية ، وذلك بادخال أقليات دينية وعنصرية .

إن الشباب المسلم يعمل على ربط نفسه بالتقاليد ، فيفصل ما هو ذو قيمة مما لم يعد يتلاءم والوقت الحاضر ، وليخلق إسلاماً مجدداً يقبل محاسن الغرب ويغالب الحضارات الأوربية ، هؤلاء الشباب ينكرون إرساليات التبشير ، ويرون أنفسهم ، وقد واجههم مشكلات — كان يجهلها آباؤهم ، ويقابلهم تغير سريع فى أحوال الشرق الفكرية والاجتماعية . لقد دخلت فى نفوسهم قوى جديدة وخلقت لأول مرة : حركة شبان مـ

ومنذ قرون لم يكن فى الشرق حزازات ولا اختلافات الآباء والأبناء . أما الآن فقد حدث تغير فى علاقات الأ وصلتهم بالحياة والأسرة والطبيعة .

وقد أمر الشباب فى الشرق : حب الرياضة والتجول دخلت إلى حياتهم العاطفية مشكلات الحب والزواج . تعايم البنات بغير العلاقة بعد الجنسين . وزيادة على ذلك الشباب — ولما يملكوا القوة بعد — أن يتخلصوا من الم ومما وارث من العادات فى السياسة الشرقية ، مثل الأ الرجعية ، والحاجة إلى العزيمة الماضية ، وانخفاض مستوى الم الاجتماعية ، وعدم القدرة على التضحية بالمصالح الشخصية فى الصالح العام والمحسوبية ! . وكانت جمعيات الشبان المسلمين هذه الآمال ، إذ حاولت إنشاء مراكز ثقافية واجتماعية لـ الإسلام . وفى إبريل ١٩٢٨ — انعقد فى يافا مؤتمر لج الشباب المسلمين مع مائة وعشرين مندوباً عن فلسطين . أجمع المؤتمر على إصدار إعلان عن تأسيس مدارس إسلامية ، ودعوة الحكومة إلى فتح مدارس جديدة ، وتعديل الدراسة فى المدارس الأجنبية بروح وطنية . كما وضع للا شارة ونشيد وعلم . ومما يلفت النظر الاحتفال بيوم ا وتخصيصه للعطلة الأسبوعية ، وتنظيم دراسات مسائية للم وتشجيع المسرح العربى ، وإنشاء جمعيات إسلامية للشبا غرضها رعاية الطفل والعلاج المجانى للمرضى الفقراء .

هذه القرارات الحازمة لم تُعرف فى الإسلام ، ولا من قريب . وليس من شك فى أن هناك تأثيراً بأوربا ، و الشباب يجاهد لاستنبات هذه الأفكار فى تربة إسلام مجد وليس من شك أيضاً فى أن الجيل الناشىء من المسلمين والمس أكثر نضوجاً سياسياً من الجيل الماضى ، وذلك بفضل المدرسة الجديدة والجامعة الأوربية . ولم يقتصر عمل الشبا وضع المطالب القومية فى المقدمة فحسب ، بل إنهم تنبه للمشكلات الاجتماعية وضرورة إيجاد حلول جديدة .

(يتبع)

محمد محمد عـ

(١) The Expansion of Islam, 1928, P. 257 .